

## الموروث الثقافي العربي - الإسلامي في المكتبات العالمية / جامعة لايدن نموذجاً

◆ جاسم المطير



بهذا الصدد في حزيران 2006 كان قد ألقاها المستشرق الهولندي البروفيسور (فان كونسفلد) على تلامذته حين تحدث عما تضمه أروقة مكتبة لايدن الشهيرة موضعاً لهم تاريخ وأهمية هذه المكتبة وما تحتويه من الكتب والمخطوطات والمصادر النادرة في مختلف المجالات والاختصاصات التي تتطلب ضرورة الاستفادة من هذه المكتبة والتزوّد من هذه الثروة الحضارية والعلمية والثقافية والأدبية ليس فقط من قبل طلبة الجامعة بل للباحثين والدارسين، العرب والمسلمين، الوافدين إليها. وفي الحقيقة أنني وجدت داخل أروقة هذه المكتبة (جامعة لايدن المركزية ومعهد هولندا للشرق الأدنى) وأرففها وداخل كومبيوتراتها ثروة هائلة من المصنّفات والمخطوطات العربية والإسلامية إضافة إلى مكتبة شاسعة عن البابليين و الآشوريين والحضارة المصرية القديمة.

تأسست جامعة لايدن قبل أربعة قرون تقريباً وقد قدمت الكثير من الخدمات المكتبية - المعلوماتية بوسائل متطورة ومتقدمة الى الباحثين

وصل الارتباط العالمي بين الموروث الثقافي العربي - الإسلامي وخاصة في مجال المخطوطات داخل رفوف وأروقة الدراسات في المكتبات العالمية إلى درجة عالية من التأثير الثقافي المتبادل حيث يمكن التعرف على كثير من المبادرات الأوروبية المبنية على أهمية التبادلية الثقافية بين الحضارات.

خلال جولتي الكثيرة في مكتبة لايدن منذ عام 1999 تمكنت من الاطلاع على المنظومات الهولندية ذات التقنية العالية وعلى الأساليب المكتبية المتطورة في الحفظ والأرشفة ووضع الكتب والمخطوطات القديمة والحديثة في متناول الباحثين من مختلف أنحاء العالم والدارسين في جامعة لايدن التي لاح في افقها عام 2006 احتمال لحدوث تقدم جديد من خلال افتتاح معهد جديد معني بالدراسات الإسلامية بعد رصد الحكومة الهولندية مبلغ عملاق بهذا الشأن وقد وجدت الكثير من المحاولات لتخطي الصعاب وتذليلها في جامعة لندن ومكتبتها التاريخية الضخمة اثر حضوري لعدد من محاضرات قيمة

مكتبة الجامعة بالمخطوطات الإسلامية والتي جلبها من القسطنطينية.

(5) اهتم المستعربون من جامعة لايدن بالدين الإسلامي في مطلع القرن التاسع عشر على يد دوزي و خويه و سنوك هورخرونيه الذي ألف عديداً من المؤلفات الإسلامية خاصة تاريخ المسلمين في أسبانيا إلى جانب نشر العديد من النصوص في فقه اللغة العربية والجغرافيا وبحوث عن الشريعة الإسلامية .

(6) يبلغ عدد الدارسين في جامعة لايدن حوالي 14 ألف طالب، وتضم الجامعة 9 كليات نظرية وعملية تدرس فيها مناهج تصل لأكثر من مائة مادة دراسية في مختلف الفروع العلمية وتعد واحدة من أعظم الجامعات الأوروبية خاصة في دراسات علوم الطبيعة والطب البشري والأدب والاجتماع وعادات الشعوب والقانون الدولي .

(7) في جامعة لايدن وجدت (أقدم مطبعة ومكتبة ) متخصصة في الكتب والمخطوطات القديمة والنادرة عن تاريخ وحضارة الشرق بمختلف تنوعاتها الإسلامية والعربية والمسيحية واليونانية وقد ابتدأ العمل بهذه المطبعة سنة 1683 للميلاد وفي هذا التاريخ انطلقت في عملها من مقرها الحالي وتعرف (اي ي برييل) نسبة إلى مؤسسها الأول وكانت في البداية تابعة لجامعة لايدن العريقة وهذه المطبعة معروفة عالمياً باسم المكتبة الشرقية وتعتبر أول مطبعة كان لها السبق في طبع الكتب العربية والإسلامية ومن بين مطبوعاتها النادرة أول نسخة للقرآن الكريم قبل حوالي 4 قرون. هناك قصة طريفة تروي تاريخ طبع هذه النسخة من القرآن تقول أن أحد الايطاليين صاحب فكرة طبع هذا القرآن أنجز نسخاً منه ثم رحل بها إلى سلطان عثماني يجهل

المقيمين في هولندا او الزائرين لها من الأكاديميين العالميين . لعبت الجامعة منذ نشوئها دوراً هاماً داخل القارة الأوروبية في تنوير الأوروبيين وتعريفهم بالإسلام والحضارة الإسلامية من خلال الترجمات التي قام بها عشرات المستعربين، كما أدت دوراً تاريخياً في نشر دائرة المعارف الإسلامية وتدرس الآن لطلابها اللغة العربية والدراسات الإسلامية والعلوم الشرقية، وتعد مكتبتها من أثرى وأندر المكتبات الأوروبية فهي تضم أنفس المخطوطات العربية و الإسلامية القديمة وأهم المطبوعات والكتب الإسلامية.

### يمكن الحديث عن جامعة لايدن ومكتبتها كما يلي :

(1) أنشئت الجامعة بمبادرة من أميرها في ذلك الوقت " وليام " في الثامن من فبراير عام 1575م، مكافأة لمدينة لايدن على دورها الوطني في المقاومة الشعبية لمحاربة المستعمر الأسباني، ومنذ ذلك التاريخ حتى الآن تمارس الجامعة دوراً متميزاً في مجال الدراسات العلمية والأبحاث المعملة والميدانية المتنوعة .

(2) يعتبر الهولندي فان رافلينخن أول أستاذ كرسي للعربية في الجامعة في الوقت الذي كان يشغل فيه بتدريس اللغة العبرية .

(3) احتضنت الجامعة عدداً كبيراً من المستعربين والمستشرقين في العالم. كما أنشئت بمدينة لايدن أول مطبعة فرعاً لمطبعة انتورب البلجيكية وطبعت أول كتاب يتضمن الخطوط العربية في عام 1595م وطبع بعد ذلك أول قاموس عربي .

(4) تخصص توماس فان أربين في تدريس اللغة العربية في الجامعة لمدة أحد عشر عاماً تبعه فارنز عام 1654 في تدريس اللغة العربية وأثرى

أحد العاملين كما يمنع تصوير بعض الصور القديمة وبعض الخرائط وخصوصاً صورة مكة المكرمة . ومن الجدير ذكره أن جمهور المكتبة موزع على عدة بلدان عالمية وخصوصاً الشرق الأوسط كالسعودية وقطر والإمارات العربية المتحدة .

قيل إن عربياً اقتنى أعلى نسخة قديمة للقرآن الكريم بمبلغ يفوق خمسة وسبعين ألف يورو وبيعت منها أيضاً مخطوطة عربية إسلامية بقيمة 200 ألف يورو لعربي آخر، وتمارس المكتبة أكبر عملياتها في البيع العالمي لمخطوطاتها وكتبها النادرة عبر الإنترنت. من جهة أخرى لا أحد يعرف أسماء بعض الزبائن الكبار من بعض الدول العربية الذين يتعاملون معها في شراء بعض النفائس.

أما عن كيفية حصول المكتبة على محتوياتها من الكتب النادرة فهم يحصلون عليها في حال وفاة أحد العلماء أو الباحثين وهواة جمع الكتب النادرة من مختلف البلدان حيث يقوم ورثتهم ببيعها عن طريق الاتصال بالمكتبة، التي تقوم بإيفاد خبراء إلى الدولة المعنية والتأكد من القيمة التاريخية للمعروضات. يقال هنا أن مجموعة من تلك الكتب والمخطوطات وصلت إلى أوروبا عندما قام أمين بن حسن المدني الحلواني (الملكة العربية السعودية) ببيع بعض محتويات (مكتبة عارف حكمت) و (المكتبة المحمودية) إلى جامعة لايدن في هولندا، وجامعة برنستون في الولايات المتحدة . في المحصلة يمكن القول إن هذه المكتبة تعتبر من بين الظواهر الثقافية العالمية المتخصصة بثقافة الدول العربية والإسلامية إذ يمكن أن تنعدم أو تسرق مخطوطات وكتب قديمة بلدان العالم العربي كما حصل في العراق عام 1991 وما بعد سقوط صدام حسين عام 2003، لكن هذه المكتبة استطاعت أن تجمع تحت سقفها كل ثقافات العالم وأديانه.

اسمه لتقديمها له كعز هدية. إلا أن هذا الأخير رفض الفكرة واعتبرها بدعة ورمى بالنسخ المطبوعة في احد الأنهر وأخفى أحد خدم السلطان نسخة منها هي معروضة الآن في متحف روما حسب مصدر من هذه المكتبة وهي أيضاً أول مطبعة طبعت القرآن الكريم مترجماً إلى الهولندية سنة 1600 للميلاد.

وفي سنة 1766 للميلاد أضافت إلى أعمالها بيع الكتب والمخطوطات العربية والإسلامية والعربية النادرة والقديمة.

بهذا الصدد يمكن مقارنة مكتبة جامعة لايدن بالمكتبة البريطانية التي يعتبرها الباحثون العرب والمسلمون أنها واحدة من أكبر المكتبات الأوروبية التي تمتلك مجموعات خطية عربية في كافة الفنون والعلوم منها " تفسير سفر التكوين " لمجهول ونسخت عام 833 ميلادية بخط الثلث في 13 ورقة تضم كل منها 16 سطراً مشيراً إلى أن " الشارح يؤكد أن التاريخ بدأ بخلق الإنسان " كسفير الله على الأرض وأن اختيار الله كان للآباء البطارقة إبراهيم واسحق ويعقوب وأن كل تصرف وكل عمل ورد في تاريخهم هو عبارة عن مقدمات متعددة لمجيء المسيح كملخص .

بالنسبة لـ " المكتبة الشرقية " فإن جل الكتب المتوفرة فيها متخصصة في تاريخ وحضارة وعلوم الشرق الأوسط والأدنى والأقصى وفي نفس هذا التاريخ المذكور تعرضت للحريق وأعيد بناؤها من جديد وتوفر على طابقين بالإضافة طابق سفلي ويشغل فيها 4 بالإضافة إلى مدير المكتبة وزوجته وتضم كذلك خرائط قديمة وصورتين ذهبيتين لمكة المكرمة والكعبة المشرفة رسمت باليد عثر عليها في النسخة الأصلية لكتاب دلائل الخيرات الذي ألفه الإمام الجزولي سنة 1763 ولوحات فنية هامة. وتعرف هذه المكتبة قوانين صارمة بحيث لا يسمح لكل الزائرين بالصعود إلى أعلى بمفردهم بل برفقة